الباب الثالث

الهوية والانتماء

« العرقية والوطنية والقومية »

الهوية والانتماء
العرقية والوطنية والقومية

تمهيد :

كل الدول فى العالم متعددة العرقية ، وقد تتعدد الأصول العرقية بشكل كبير ولأن كل مجموعة عرقية لا يمكنها أن تقيم دولة لأسباب واضحة تتعلق بحجمها وموقف الدول المحيطة بها وموقف الدول الكبرى إلى غير ذلك من الأسباب فإن الأمر انتهى بتقسيم المجموعات العرقية إلى أمة وقومية وأقلية وطنية وقبيلة .

والقومية والهوية ليست مجرد اتفاق بين مجموعة من البشر فى اللغة أو الدين أو الثقافة أو الأصل أو وجودهم المشترك على أرض واحدة ولا لأنهم يعيشون حياتهم المشتركة على هذه الأسس ، أو حتى على شعورهم بهذه الروابط المشتركة ، ولكن الإحساس بالانتماء يجب أن يرعى ، وأن ينمو حتى يترسخ كإحساس جماعي بالانتماء والهوية ، وتلعب المواقف المشتركة والكفاح المشترك ومعارك النضال دوراً هاماً فى تغذية وترسيخ شعور الانتماء والولاء .

وإذا تطرقنا إلى تعريف القومية أو الهوية أو الوطنية فإننا نصادف مشاكل متعددة ؛ فاللغة المشتركة مثلاً قد لا تكون متاحة ، فهناك دول ذات قومية واحدة يتكلم شعبها أكثر من ثلاث لغات بالإضافة إلى عدد

كبير من اللهجات ، ولا يشترط أن يتخذ شعب واحد ديانة واحدة فكثيرا ما تتعدد الديانات داخل كيان وطنى واحد كما يحدث فى كل من الهند وباكستان ، وفيما يتعلق بالأصل العرقى فإن شعوباً كثيرة وأوطاناً متعددة تتعدد فيها الأصول العرقية بشكل واضح كما هو الحال فى البوسنة والهرسك ، ومشكلة الأكراد فى كل من العراق وتركيا وسوريا .

التعريف :

تعريف القومية أو الوطن بالشكل المعاصر تعريف قصير العمر ؛ فلقد كانت معايير الهوية والانتماء مرتبطة بكيانات أقل على مستوى قرية أو منطقة أو مقاطعة ، ولم يحدث إلا فى القرن الثامن عشر فى أوروبا بالذات أن بدأت الوطنية كمفهوم معاصر فى الظهور، مرتبطة فى الأصل بالملك أو الإمبراطور، ثم بدأ المفهوم السياسى والاقتصادى فى تشكيل أبعاد القومية أو الوطنية ، وفى القرن التاسع عشر مع اتساع حجم التجارة العالمية أخذ البعد الاقتصادى جانباً هاماً من مفهوم الهوية الوطنية ، وارتبط إلى حد كبير بالمصالح الاقتصادية للدولة أو الأمة .

وفى أوائل القرن العشرين تنبأ عدد كبير من علماء الاجتماع أن العرقية والقومية ستفقد أهميتها مع الحداثة والتصنيع والاتجاه إلى

الفردية ، وأنها فى النهاية ستتلاشى كلية ، إلا أن ذلك لم يتحقق ، بل على العكس فأن العرقية والقومية تزايدت أهميتها السياسية بشكل مضطرد خصوصاً فى أعقاب الحرب العالمية الثانية ، وتعريف العرقية *Ethnicity* تعريف حديث ، ويقول " ناثان جليزر" *Nathan Glazer* : " إن التعريف ظهر أول مرة فى قاموس " أكسفورد " ١٩٧٢ منسوياً إلى عالم الاجتماع " دافيد رايسمان " *David Reisman* ". بينما كلمة العرقى *Ethnic* أقدم بكثير ، وهى مستمدة من كلمة إغريقية *Ethnos* وهى تعنى الهمجى أو الوثنى ، واستعملت من منتصف القرن التاسع عشر وفى الولايات المتحدة بدءا من الحرب العالمية الثانية جرى استعمالها تأدباً فى الإشارة إلى اليهود والإيطاليين والايرلنديين والذين كان ينظر إليهم على أنهم فى مرتبة أدنى ممن انحدروا من أصل إنجليزى ، ومن الملاحظ فى أوربا على سبيل المثال تزايد المطالبة من الأقليات الوطنية والتجمعات العرقية على إنشاء دول مستقلة حتى إن بعض المفكرين يتنبأون بأن أوربا فى سبيلها للتقسيم إلى عدد كبير من الدول قد يبلغ ألف دولة ، وبصرف النظر عن الاعتبارات التاريخية والعاطفية التى تفسر مثل هذا الاتجاه إلى التقسيم إلا أننا لا يمكن أن نستبعد أن يكون التقسيم رد فعل ضد مظاهر العولمة وزيادة تسلطها .

والعلاقة بين كلمة العرقية والقومية أو الوطنية علاقة معقدة مثل العلاقة التى تربط العرقية بالجنس أو السلالة .

ولكن الوطنية تتميز بأنها ذات محتوى ثقافى يربط بين أفرادها كما أن من معالمها المميزة ارتباطها بدولة وأرض ، والارتباط بين الهوية الثقافية والحدود السياسية أمر مميز للقومية ، بينما لا تصر الجماعات العرقية بالضرورة على هذا الارتباط بالنظام المؤسسى للدولة وحدودها .

نأتى إلى مفهوم الوطنية كارتباط مجموعة من البشر بأرض محدده يطلق عليها اسم الوطن ، قد يكون له رمز وعلم ، قد يكون له نشيد قومى وسلام وطنى إلى غير ذلك ، ولكن بصرف النظر عن الرموز فهناك ولاء وانتماء من كل هؤلاء للذين يعيشون على هذه الأرض للوطن ككيان تاريخى وجغرافى واجتماعى واقتصادى وسياسى ، وكلمة الوطنية بالإنجليزية هى "*Patriotism*" وتعنى حب أرض الآباء ، بما فى ذلك من إشارة واضحة إلى اعتبارات عاطفية وتاريخية .

الفصل الأول

الوطنية فى مصر

هل شعور المصريين بالوطنية يرجع إلى أقدم العصور ؟

هذا سؤال مهم ، هل كان هناك شعور حقيقى بالوطنية عند المصريين منذ فجر التاريخ ؟ والإجابة قاطعة نعم كان هناك شعور عميق بالوطنية عند المصريين القدماء .

فلقد كان المصريون القدماء يعتبرون أنفسهم وطنيين أصلا نشأوا وولدوا فى بلادهم وكانوا شعبا معتزا بنفسه .

وقسم المصريون العالم إلى الأرض السوداء (وادى النيل) الوطن والأرض الحمراء (الصحراء) الأرض الأجنبية ، واعتبروا أن وادى النيل هو وطنهم الأصلى ، أما ما يحيط به من الصحراء فهى ارض أجنبية .

ولقد كان المعلمون والمثقفون يتناقلون تاريخهم القومى بسبل شتى، فقد تضمن لوح مدرسى صغير من القرن السادس عشر قبل الميلاد موضوعاً تعليمياً ، درس صاحبه خلاله مرحلة من مراحل كفاح أجداده ضد الهكسوس وهى مرحلة صورت تصميم الفرعون " كامس بن سيقننرع " على

مواصلة الجهاد ضد الأعداء المحتلين حين مضى يعلنه على أهل حاشيته قائلا : " سوف أصارع العدو، وأبقر بطنه ، وقد نويت أن أحرر مصر، وأحطم العامو (أى الهكسوس) " ، وفى مخطوطة تعليمية أخرى من القرن الثالث عشر قبل الميلاد كتب طالب يدعى " بنتاورة " تاريخا لبداية النزاع بين الفرعون المصرى " سيقننرع " وبين ملوك الهكسوس وكيف اشتد ذلك النزاع وزادت حدته ، وروى كيف حاول ملك الهكسوس أن يتقى استعدادات المصريين ضده ، وكيف عمل " سيقننرع " على أن يستثيرهمم رجاله ليبدأوا الجهاد معه لتحرير بلدهم .

وإذا كنا نتحدث هنا عن عمق الشعور بالوطن لدى المصريين منذ أقدم العصور، فقد كان خير ما وُعد به ملاح تائه (فى قصة الملاح الغريق – من الأدب المصرى القديم) أن منقذه قال له : " ولسوف تملأ حضنك بأولادك وتقبل زوجتك ، وترى بيتك ثانية ، وأفضل من شىء آخر أن تصل إلى وطنك الذى كنت فيه بين اخوتك وأخواتك " .

وفى قصة سنوحى (أو سنوهى) التى كانت من أحب القصص إلى قلوب المصريين القدماء منذ الأسرة الثانية عشرة يرد وصف حاله فى الغربة ، وشوقه للعودة إلى وطنه مصر، ويتمنى بعد ذلك من الله أن يرأف به ، ويعيده إلى مصر، وأرسل " سنوحى إلى " سنوسرت " وزوجته يرجوهما ويستأذنهما فى المجىء إلى مصر، فجاءه رد الملك بما أدخل السرور على قلبه .

ومما هو جدير بالذكر أن " سنوحى " هذا شخصية حقيقية ، عاش أيام الملكين أمنمحات الأول ، وسنوسرت الأول (١٩٩١ – ١٩٢٤ ق.م) .

كل هذا يؤكد بشكل قاطع أن الوطنية كانت موجودة فى مصر من آلاف السنين ، وأن الشعور الوطنى كان مميزا للمصريين منذ فجر التاريخ .

كانت مصر باستمرار كيانا واحدا كأمة وكدولة . ومن النادر أن نجد -تاريخيا- مثلا آخر يشابه هذا النظام ، وكما يقول الأثرى الإنجليزى " سميث " *Smith* : " إنه ما من أمة كبيرة . . فى العالم قد توحدت توحدا كاملا تحت سيطرة حاكم واحد كمصر " .

أو كما يقول جمال حمدان فى "شخصية مصر" أن الاستمرارية المصرية لاتعنى التكرار "*Repetitive*"، وإنما تعنى التراكمية "*Cumulative*" وعلى حد تعبير " نيوبرى " *Newberry* أن مصر وثيقة من جلد الرق ، الإنجيل فيها مكتوب فوق هيرودوت ، وفوق ذلك القرآن وخلف ذلك لا زالت الكتابة الهيروغليفية مقروءة جلية

مقومات الوطنية فى مصر :

١- الجنس والعرقية :

لاشك أنه منذ فجر التاريخ فإن سكان مصر كانوا يتميزون فى ملامحهم بتوافر مجموعة من الصفات الجسدية والجنسية والملامح المميزة والتى تعطيهم طابعا مميزا .

وبصرف النظر عن النظريات المختلفة فهناك حقيقتان أساسيتان وهما :

أولاً : أن المصريين القدماء شعب أصيل فى مصر *Autochthonous* ، ولم يفدوا من مكان آخر كما يقول " شانتر " *Chanter* .

ثانيا : أن احتمالات الاختلاط الهامة كانت محدودة للغاية ، وقلت بدرجة كبيرة منذ عهد الأسرات ، وأكثر الاحتمالات رجاحة هى أن المصريين كانوا من سلالة البحر الأبيض المتوسط طبقا لآخر دراسات علم الأجناس الحديثة .

كما تشير الأدلة المتوافرة أن هناك استمرارية جنسية ما بين سكان العصر الحجرى وما بين عصر ما قبل الأسرات وإلى عصر الأسرات .

وهكذا فمنذ فجر التاريخ برز الشعب المصرى كوحدة جنسية واحدة متجانسة بقوة فى الملامح الجسمية .

ومن الطريف أن هذا الثبات *PERSISTENCE* لم يتحرك من آلاف السنين حتى إن ثمة تماثيل فرعونية من عصر الأهرامات حينما اكتشفت تعرف العمال والفلاحون الذين كانوا متواجدين وقت اكتشاف هذه التماثيل ، على أشباه لهم من بين الأفراد الذين لا يزالون يعيشون بينهم .

ويزيد هذه الاستمرارية ثباتاً أن مصر لم تعرف هجرات بشرية كبيرة حقيقة لقد تعرضت لثلاث غزوات رئيسية ، ولكن الهجرة تتخذ طريقا إلى المدن وإلى عمق الريف وتستقر فى قلب المجتمع ، بينما الغزو يتوقف عند المدن الرئيسية ولا يتغلغل إلى الداخل .

فالغزوتان الأوليان : فإن الهكسوس واليهود نكصوا على أعقابهم الأولى : دحرها أحمس ، وطاردها إلى خارج الحدود ، والثانية : عادت فى النزوح الكبير.

وأما الغزو العربى : فهم أبناء عمومة المصريين ، ومن نفس الجنس الحامى ، وقد امتزجوا بالشعب المصرى ، وفى الواقع العملى : كانت عملية زواج بين أقارب متقاربين .

٢ - الوحدة :

كانت الوحدة بين شطرى الوادى أملا مستمرا منذ فجر التاريخ ، وجرت عدة محاولات للوحدة ، بدأت إحداها فى الفترة من

[٤٢٠٠ إلى ٤٠٠٠ سنة قبل الميلاد] كانت الدلتا فى هذا الوقت أقوى من الصعيد ، لذلك كان ملوك الدلتا هم أول من فكر فى اتحاد مصر تحت سيطرة حاكم واحد ، وتم توحيد مصر فى إطار هذه المحاولة وكانت العاصمة هى بلدة بوصير، وهى بلدة إله شرق الدلتا المسمى (أوزير عنزتى) ، وربما يكون أول ملك لها هو " أوزير " وصورته العقائدية على هيئة ملك متوج بتاج مزدوج للصعيد والدلتا .

ولكن المحاولة لم تستمر، وانقلب أهل الصعيد بزعامة أنصار معبوده (ست) وانقسمت البلاد إلى شطرين : فأصبح الوجه البحرى للإله (حور) والوجه القبلى للإله (ست) .

وجرت المحاولة الثانية مرة أخرى حينما استطاعت مملكة الشمال إخضاع مملكة الجنوب وذلك بزعامة (أونو) ملك الشمال متخذة " عين شمس " عاصمة لها ، وكانت شارة المملكة وشعارها قرص الشمس ناشرا جناحيه اللذين يرمزان إلى نصفى مصر. . الوجه البحرى والوجه القبلى .

ولكن مرة أخرى قامت ثورة دينية من الاشمونين فى مصر الوسطى وانفصلت المملكتان مرة أخرى ، الأولى : فى الوجه البحرى وعاصمتها بوتو المعروفة الآن بتل الفراعين فى شمال دسوق ، والثانية : فى الوجه القبلى وعاصمتها " نخن " والمعروفة الآن بالكوم الأحمر، ولكن رغم الانفصال فإنه من الملاحظ أن الإله (حور) بن (أوزير) ظل الإله الرسمى لكل من

الملكتين ، ثم أتت المحاولة الثالثة والأخيرة : على يد " مينا " موحد القطرين حاكم مصر العليا فى سنة ٣٤٠٠ قبل الميلاد ، واستمرت مصر موحدة منذ هذا التاريخ .

وكذلك بدأ عصر الأسرات ، وقد واكب هذا التطور ظهور الكتابة الهيروغليفية مرتبطة بتسجيل حدث الوحدة القومية فى لوحة " نارمر" الشهيرة .

وكما بينا من قبل فإن المصريين ينحدرون بصفة عامة - طبقاً ووفقاً لدراسات علم الأجناس الحديثة - من سلالة البحر الأبيض المتوسط ، ويرى البعض أن المصريين الذين استوطنوا مصر ونشأوا وترعرعوا فى الفترة التى تسبق رحلة توحد القطرين كانوا ينتمون إلى الحاميين الشرقيين ، ويمثلون مجموعة بشرية متجانسة .

وعلى أية حال يندر أن توجد أمة تتوحد فى نشأة السلالة بهذا الشكل المتجانس .

٣- الديـن :

كان عامل الدين عاملا مهما منذ فجر التاريخ عند قدماء المصريين ؛ فقد آمنوا بوجود اله ، آمنوا بالبعث ، آمنوا أن الفرعون هو ظل الله فى الأرض، وأنه الكاهن الأكبر والرئيس الأعظم لدين الدولة الرسمى .

آمن المصريون بالحساب بعد البعث ، وقد يكون هذا من العوامل التى وحدت بين المصريين ، وعمقت من مشاعر الانتماء لديهم وأثرت على طباعهم وسلوكهم ؛ لأن الدين كأن يفسر لهم الكون بتعاليمه ويدعوته للخير وإدانته للشر وردعه عن ارتكاب المعاصى ويبشرهم بأنه لكل عمل حساب .

كان الدين .. كان الاستقرار .. كان التاريخ الموحد .. كانت العادات المصرية فى مجموعها تمثل عاملا هاما فى الاستقرار الداخلى والسلام الذاتى للمصريين فى معظم مراحل التاريخ ، ولذلك لم يعرف التاريخ المصرى ثورات ضخمة أو اتجاها للعنف أو القسوة ، أو نزعات إلى التطرف أو الإرهاب طوال تاريخه .

واتجه سلوك المصريين إلى البناء والتعمير ، فشيدوا المعابد والتماثيل والأهرامات ، ومهدوا الطرق وعمروا البلاد .

٤ - الإحساس المشترك بالخطر :

كانت مصر بفضل موقعها الاستراتيجى مطمعا للغزاة وللمغامرين الذين كانوا يعتبرون أرضها الغنية وموقعها الجغرافى الفريد ومناخها المناسب مغنما يستحق المغامرة من أجله ، وعلى الجانب الآخر فإنه كان فى مصر إحساس بالخطر الخارجى ، وكان هذا عاملاً مهماً فى توحيد الشعب والتضامن وشعور الجماعة الذى كان يصل ذروته عند احتمالات الخطر.

ولم تكن هذه الظاهرة (ظاهرة الإحساس بالخطر) رغم كل التضحيات التى تحملتها مصر ظاهرة مرضية ، بل إنه يمكن القول : إنها كانت ظاهرة صحية شحذت الوعى الوطنى ، وعظمت الإحساس واليقظة الوطنية .

واستبعدت فى نفس الوقت احتمالات الانغلاق على الذات، والانعزال عن العالم الخارجى ، بل إنه من السمات المميزة لمصر أنها من أقدم وأول الشعوب التى انفتحت على العالم الخارجى ، وأنها كانت موقع اتصال واحتكاك مع الثقافات المختلفة ، وأنها فى كثير من الأحيان كانت واحة يلجأ إليها كل الهاربين من الظلم والاضطهاد فى بلادهم ، أو المهاجرين من أوطان أو مجتمعات أخرى .

٥ - الاستقرار والتجانس :

قامت الوسطية والتجانس ، والحضارة المستمرة والمستقرة على جنبات هذا الوادى لآلاف من السنين بتأثيراتها " الجينية " المنطقية عبر أجيال متعاقبة تأثرت بالعادات والسلوك الاجتماعى والأخلاقيات السامية، والبعد عن العنف والقسوة والالتزام والإيمان بالنظام وبالقدرة على التأمل وبالإيمان بالقوى الروحية والاعتقاد بالبعث والحساب ، وبالقدرة على الانفتاح على الخارج ، واستقبال الوافدين والأجانب والزوار، كانت هذه كلها ميزات شكلت استعدادا لهذا الشعب

لتقبل التغيرات العالمية ، وأن يكون عضوا نافعا فى المجتمع العالمى ليس قائما على السيطرة والهيمنة ، ولا على الاحتكار وفرض الإرادة ، ولكن من موقع المساواة والندية .

٦ - اللغـــة :

فلم تتغير اللغة فى مصر إلا مرتين : مرة من الهيروغليفية إلى القبطية ومرة من القبطية إلى العربية ، ولكن التغيير فى كل مرة كان عاما شاملا للشعب كله ، وانتقلت آلاف الكلمات من اللغة القديمة إلى اللغة اللاحقة ، وكانت اللغة فى كل مرة تحمل كثيرا من المفردات والكلمات من اللغة التى حلت محلها .

٧ - الحيـــاة الاقتصـادية :

الحياة الاقتصادية كانت أيضا واحدة ، سواء كانت فى النشاط الاقتصادى القائم على الزراعة المنظمة وهو النمط الذى لم يحدث فيه تغيير على امتداد عدة آلاف من السنين ، سواء فى مواعيده أو أسلوبه أو طبيعته .

أساليب الزراعة : الرى - وارتباطه بالفيضان - طريقة البذر وفلاحة الأرض - عمليات الحصاد والجنى والتخزين - وأساليب العمل المرتبطة بكل منها .

لم تكن مصر فى تاريخها الطويل منغلقة على نفسها ، ولا متعصبة لذاتها ، ولا رافضة للاحتكاك الدولى ، ولكنها كانت معتزة بنفسها ، بهويتها بجذورها وبحضارتها ، ولكنها أيضا باستمرار كانت نقطة اتصال بالعالم الخارجى ، ولها استعداد كامل لاستقبال الأفراد والأفكار ، وكانت الوسطية والطيبة السائدة فى شعبها سبباً فى أنها كانت باستمرار مقصدا للزوار والسياح والمهاجرين والهاربين أحياناً من بلاد تشيع فيها القسوة والاضطهاد .

الفصل الثانى

مشروعية الوطنية
فى عصر العولمة أو « الكوكبية »

ثم نأتى إلى نقطة أساسية فى هذا البحث :

هل الحديث عن الوطنية أو القومية فى عصر العولمة عبث ؟ هل هى ردة تاريخية ؟ هل هى سباحة ضد التيار ؟ هل هى دعوة إلى مقاومة ثورة علمية كاسحة بما تشكله من إمكانات " تكنولوجية " هائلة وإمكانات اتصال فائقة ؟

أو هى دعوة إلى الانغلاق ؟ هل هى دعوة إلى الانكباب على الذات والتقوقع داخل حدود لم يعد لها نفس المدلول الذى كان سائدا فى عصور سابقة ؟ هل هى رجعية فى التفكير كما يحلو للبعض أن يسميها ؟ هل هى عدم واقعية فى تقدير الأمور كما يحلو للبعض الآخر أن يصفها ؟ أو هى دعوة جديدة بروح جديدة ؟

نحن نرى أن :

- الوطنية التزام ، والالتزام قيمة .
- الوطنية انتماء ، والانتماء مسئولية .
- الوطنية اعتزاز ، والاعتزاز أصالة .
- الوطنية ارتباط بالجذور ، والارتباط ملاذ ومصير .

الوطنية تشكل إطاراً للقيم الإنسانية ، الوطنية لا تشكل جدارا لسجن ولا حافة لخندق ، ولا حاجزا لمنفى ، إنما هى تشكل معبرا للالتقاء بالإنسانية كلها ، الوطنية سياج للحماية ، الحماية للقيم الإنسانية والأخلاقية ، والتطعيم ضد الضياع والتهميش واللامبالاة .

الوطنية انتماء وهدف ، وولاء لقيم ومبادئ ، وسياج يحمى الإنسان ولكنه سياج شفاف ونفاذ لا يحجب الضوء ولا يمنع دخول الهواء النقى ، ولايحجب الأفكار، ولا يمنع الحوار، ولا يحجب الاتصال بالبشر فى كل مكان .

الوطنية حب وتعاطف ، وليست تطرفاً أو كراهية ، حب للأرض والإنسان والعائلة والقيم والخير والجمال . إن التحلل من الارتباط بالأرض أو الجذور هو بداية انفراط عقد الانتماء ، لسلسلة من الارتباطات بالمكان والزمان ، بالمبادئ والإنسان ، بالتعاطف والتكافل ، وهو طريق له بداية ولا تبدو له نهاية إلا الغربة والوحشة والإحساس بالضياع .

الوطنية طعم واق ضد القوة الطاردة المركزية للعولمة ، ضد أخطار "القطيع الإلكترونى " الذى يستهدف فقط غزو الأسواق وتحقيق الربح بأى وسيلة وعلى أشلاء أى ضحايا .

الوطنية وجود للإنسان على أرض صلبة يتمسك فيها بجذوره وحضارته وتاريخه . . قيمه الإنسانية المعبرة عن الجمال والخير

والخلق .. تجاريه الناجحة .. نماذجه المشرقة التى تصبح قدوة للأجيال القادمة وللشعوب الأخرى .

الوطنية قاعدة للانطلاق إلى المستقبل ، والانفتاح على الغير ، وليست متاريس أو خنادق ، ولكنها معابر للالتقاء بالغير والخير .

- الوطنية ثقة بالنفس بلا غرور .
- الوطنية اعتزاز بالأرض والجذور بلا تعال ولا نفور .
- الوطنية ولاء وانتماء بلا انغلاق ولا رياء .
- الوطنية التزام وليست تعصبا .
- جذور وليست متاريس .
- استيعاب وذاكرة وليست عزلة أو تجاهل .

- اعتزاز بقيم وإنجازات وتضحيات من اجل الخير والغير .

- الوطنية ليست اعتداء على حقوق الآخرين مبنية على دعاوى باطلة أو أساطير زائفة .

الوطنية قاعدة انطلاق إلى المستقبل ، وليست ردة إلى الماضى .

الوطنية ليست حائط مبكى ، ولا لطما للخدود ، وإنما هى عمل ومسئولية وكفاح وفاعلية .

وإذا نظرنا إلى العالم من حولنا نجد أن الوطنية تلعب دوراً رئيسياً حتى فى الدول التى تقود العولمة وتستهين بالنزعات القومية والحركات الوطنية .

أمريكا القطب الأكبر فى عالمنا هذا : لا تتحرج أن يتكلم رؤساؤها عن المصالح الأمريكية العليا فى كل مناسبة ، ولا أن يصدر الكونجرس الأمريكى قانوناً يبيح للقوات الأمريكية أن تلاحق من يتعرضون للأمن القومى الأمريكى إلى داخل حدود الدول الأخرى .

ولا تتحرج أمريكا فى أن تضع شروطا لاستعمال بضاعتها وفرض منتجاتها ونشر ثقافتها .

وروسيا القطب الثانى :- والذى تراجع فى بداية التسعينات - فإنها برغم اعتناقها الماركسية اضطرت اضطراراً فى أثناء مقاومتها للغزو النازى فى الحرب العالمية الثانية إلى إثارة حافز الوطنية الروسية ، وإذكاء روح الوطنية والكرامة الروسية ، وكانت الوطنية وحدها - وليست الماركسية - هى القوة التى أوقفت الزحف النازى ، وأنقذت الوطن الروسى ، بل حينما تأزمت الأمور وحل الخطر لجأت روسيا الشيوعية التى يفترض أنها تستهين بكل الانتماءات إلا انتماءها إلى الماركسية ولا تعتمد إلا على البروليتاريا *Proletariat* أو الطبقة العاملة ، لجأت إلى الوطنية الروسية لإيقاف الخطر وإنقاذ الوطن .

والدول العظمى نفسها وهى تتغنى بمزايا العولمة وهى تفرض قوانين العولمة لا تتحرج عن التمسك بإعلاء مصالحها الوطنية على أى اعتبار آخر.

إننا نتفق مع الكثيرين على أن الوطنية لا يمكن أن تكون تعصباً أو انغلاقاً وأن الوطنية يجب ألا تكون تطرفاً أو إرهاباً ، وألا تكون غروراً واستعلاء ولا استهانة بالقيم الإنسانية لشعوب أخرى ، ولا يمكن أن تكون نفوراً من الآخرين .

ولا نتصور للحظة أن الوطنية يمكن أن تكون تصادما مع التقدم ولاوقوفاً ضد المعرفة والعلم والأخذ بالجديد المفيد والمستحدث النافع، ولسنا ندعو بأية حال إلى اصطناع مواجهة مع السوق العالمية الواحدة أو لاختلاق قطيعة مع التكتلات الاقتصادية الكبرى .

إننا ندعو إلى الانتماء إلى حدود أخلاقية بقدر احترامنا لحدودنا الجغرافية . . إننا ندعو إلى الالتزام بقيم إنسانية رفيعة وجذور حضارية نبيلة ، وليس فقط حدود جغرافية أو رموز شكلية أو تقاليد معيشية .

. . انفتاح على العالم بلا انبهار وبلا انكسار وبلا ارتماء فى أحضان الغير. . وطنية تشجع على تقدم علمى ، وعلى تنمية قوى ذاتية بضوابط أخلاقية وارتباط بالوطن بقيمه العريقة الإيجابية ، وفى الوقت

نفسه ارتباط وانفتاح على الإنسانية التى نحن جزء لا يتجزأ منها ومن تراثها .

.. ارتباط مبنى على التكامل والتراحم ، والتعاون المنزه عن الابتزاز أو الانتهازية ، والمترفع عن الجشع والطمع والاحتيال .

هل تعنى الوطنية فى تقديرنا إنكارا للعولمة وآثارها ؟ وتجاهلاً " للقطيع الإلكترونى " وسطوته ؟ لا فذلك معناه أننا ندفن رؤوسنا فى الرمال .

وهل يعنى اعترافنا بأن العولمة قدر مكتوب أنه استسلام وانهزامية ؟ لا .. إنه فقط تسليم بأمر واقع ، ومواجهة لحقيقة علمية .

إن إنكار العولمة أو التناطح معها بلا وعى هو تخلف فى التفكير ونقص فى التدبير ، وإنكار للواقع ، وموقف سلبى لا يلغى واقعا ولا يضيف جديدا .

التسليم بالعولمة أولى الخطوات للتعامل الإيجابى والعلمى معها وللتخطيط السليم لمواجهتها ، وللعمل الشاق الذى يتعين أن نقوم به لنصبح قادرين على التعامل معها ، والتعبئة القومية التى يتعين حشدها لبناء قوتنا الذاتية ، والتسلح بالقدرات والخبرات اللازمة لعصر جديد ، وللتعامل مع الواقع الجديد بآليات مناسبة ، وبِعُدةٍ أحسنّا إعدادها من علم ومعرفة وتكنولوجيا متقدمة .. هى أدوات العصر وأسلحة المستقبل .

مواجهة الخطر تقتضى دراسته ، وعدم الاستهانة بخطورته وبالعمل العلمى الجاد ، وبالجهد الوطنى الدؤوب ، وبالتعبئة القومية المخلصة .

أما رفع الشعارات التى تنكر أو تشجب أو تكتفى بالرفض والمقاطعة فهى مقومات مناسبة ترشحنا أن نكون أبطالاً للفرص الضائعة ، وتحجز لنا مكاناً بارزاً فى متاهات التاريخ ، وأساطير معارك طواحين الهواء .!!

نريد آفاقاً وليس مجرد حدود ، تقدما علميا بضوابط أخلاقية وإنسانية . . ارتباطاً بالوطن . . بقيمه الإيجابية وتراثه العريق . . ارتباطا بالإنسان الذى نعيش معه أو عشنا معه فى الماضى . . مجتمعا مبنيا على التكافل والتراحم المنزه عن الانعزال والتجاهل لأى إنسان فى كل زمان ومكان .

نريد أن ندخل المنافسة فى ثورة الاتصالات مسلحين بجهاز للمناعة ضد " الإيدز الجديد " مرض فقدان المناعة . . ضد طوفان المعلومات . . عولمة بلا هوان . . وانطلاقة للمستقبل مدعمة بالأمان . . تميز وتفرد بلا طغيان . . حب للوطن والأسرة يشع على الإنسانية كلها فى غير عبادة للذات ، أو أنانية بغيضة أو تعال على الغير . . حب بلا سيطرة . . بلا " شوفينية " ، حب يطبق ما يدعو إليه الإسلام "أحب لغيرك ما تحب لنفسك" ، نريد أن ندخل العولمة لنكسب تقدماً وعلماً ولكننا نرفض أن نخسر أنفسنا .

نريد أن نستفيد من النهضة العلمية و" التكنولوجية " لتحسين نوعية الحياة ولكن لا نرضى أن يكون هذا على حساب إنسانيتنا وقيمنا الروحية ، ولا فقداً منا للرموز الجميلة في حياتنا ، ولا ضياعاً للتراحم ، وإحساساً بالأمل وبالطمأنينة نريد رمزاً نلتف حوله ، وأملاً يوحدنا ، وشيئا يعزز التماسك بيننا ، لا يمكن أن يكون التقدم أحادياً أو خطياً فى " التكنولوجيا " وحدها ، نريد أن نتقدم فى "التكنولوجيا " ولكن لابد أن نعظم الجانب الانسانى فى البشر.

هناك أناس تقدموا ولكنهم خسروا أنفسهم ، تم هذا تحت شعارات مختلفة الماركسية مرة . . والعولمة مرة . . والتطرف مرة . . اختلفت المسالك ولكن النهاية كانت واحدة . . خسر الانسان نفسه وآدميته .

لا أنسى قط مشهد الميدان الأحمر فى "موسكو" ساعة الغروب . . فى أحد شهور الصيف . . فى مطلع الستينات . . آلاف من الروس ينظرون إلى قبر لينين . . تحجرت مآقيهم ، وتسمرت عيونهم ، وخلت من البريق الانسانى أحسست فى وجه هؤلاء المساكين بشعور الضياع ؛ كانوا يبحثون دون جدوى عن رمز ، أو عن أمل أو معنى لحياتهم . . قطعت لهم الماركسية بأنه " لا دين ولا إله ولا بعث ولا حساب " ، تسمرت وجوههم على شمس الغروب ، وعلى قبر لينين ، لعلهم يجدون ما يبحثون عنه بلا جدوى .

ولا أنسى مشهد " شارلى شابلن " فى فيلمه الشهير " الأزمنة الحديثة " " Modern Times " وهو يتحول إلى آلة .. مجرد ترس فى وحش معدنى ضخم .. لا قلب له ولا عاطفة على خط إنتاج يتساوى فيه الجماد بالإنسان .

نريد تقدماً لا يؤخرنا عن الاتصال بالآخرين ، نريد حداثة لا تؤدى بنا إلى فقد التواصل مع الأسرة والمجتمع والأمة .

نريد " تكنولوجيا " خادمة لنا ، توفر من وقتنا ما كان يضيع فى أعمال يمكن الاستغناء عنها باستعمال آلة معينة ، تسهل لنا حياة أفضل ولكنها فى نفس الوقت تمكننا من أن نخلو أحياناً إلى أنفسنا ، وأن نفكر فى معنى أو رمز لا تحرمنا من القدرة على التأمل ، ومن ضرورة الوقفة أحياناً مع النفس والقدرة على أن نحاسب أنفسنا عند الضرورة .

نريد تقدما لمجتمع أفضل لا يضعف من قدرتنا على الاستمتاع بالحياة فى تذوق الجمال .. فى الانبهار بالطبيعة .. فى الشعور بدفء العلاقات الإنسانية الحميمة .. الفرحة ببسمة طفل .. الانبهار بتفتح زهرة .. السعادة بنسمة هواء .. الارتواء برشفه ماء ..

نريد تقدما اقتصاديا مبنيا على القدرة " التكنولوجية " الهائلة وقدرة المعلومات الهادرة ، نريد أن نقتحم المجالات المختلفة فى الاقتصاد العالمى الجديد ، نريد زيادة فى القيمة المضافة للإنتاج

القومى، نريد زيادة فى الدخل القومى الإجمالى ، ولكننا فى نفس الوقت لا نرضى بان يكون هذا على حساب ضياع الوفاق الوطنى أو ضياع الرضى القومى العام .

نريد تقدما " تكنولوجيا " واقتصاديا يفتح لنا أسواقاً جديدة ، ويرفع مستوى الحياة لأغلبية أفراد الوطن ، ولكننا نرفض أن يكون ذلك على حساب فقدان عدد كبير من المواطنين لفرص عمل شريفة ، ونرفض أن يكون على حساب تهميش شريحة كبيرة من غير القادرين ، وإحلال الآلات بدلا منهم .

لا نريد أن يكون هذا على حساب حلول وهمية لمشاكل صادفت مجتمعات أخرى ؛ فأوكلت حلها إلى كيانات هلامية ومؤسسات خيالية لم تستطع أن تنهض بالمهام المطلوبة ، وعلى حد تعبير "جيرمى ريفكين" *Jeremy Rifkin* فى كتابه الشهير " نهاية العمل " *End Of Work* "«إن العالم مطالب اليوم بان تقوم الحكومات ومعها القطاع الخاص بدعم القطاع الثالث فى المجتمع القائم على المجتمع المدنى الذى يوفر فرص عمل قد يكون بعضها تطوعيا للقيام بخدمات أساسية للمجتمع فى مجالات البيئة والنظافة ورعاية العجزة والمسنين وفى مجالات الرعاية الاجتماعية والصحة والتعليم ، وإلا فالخيار الثانى أمامها أن توجه نفس الدعم، وربما أكثر منه بكثير لإنشاء السجون الكافية لاستيعاب المجرمين والخارجين عن القانون من

المهمشين وغير القادرين واليائسين والذين أحسوا بغربة مكانية موحشة حولتهم إلى أعداء للمجتمع ولأنفسهم » .

إننا ندعو إلى عدم إغفال الهوية والانتماء ، وعلى التركيز على الجانب الوطنى ، مع تسليمنا بضرورة عدم إغفال متطلبات المشاركة فى العولمة .

إن ذلك ينبع من موقف مسئول نرى فيه العالم كوحدة متكاملة يهمنا ما يحدث فيه ، ونتعاطف مع البشر فى كل مكان ، ونعتبر أنفسنا مسئولين عن شقاء أو عذاب أو معاناة أى إنسان فى أى مكان وزمان ، كما أننا فى نفس الوقت نتحمل مسئولية تجاه الأجيال القادمة التى يتعين علينا - ويحق لهم علينا - أن نضمن لهم عالما آمنا يتمتع ببيئة صالحة ، وأمن واستقرار وألا نورثهم أحقادا يدفعون فاتورتها ، وتدميرا للبيئة يفقدون حياتهم بسببها .

لا نريد ردود الأفعال التى يمكن للعولمة أن تتسبب فيها فى زيادة لروح التعصب ونزعات التطرف ، والرغبة فى الانتقام والغربة المكانية التى يمكن أن تؤدى إلى هجرة زمنية، أو إلى عداء للمجتمع الذى لم يفكر فيهم ، ولم يعبأ بآمالهم ومتطلباتهم فحولهم إلى أقليات شاردة، وشراذم مهمشة، أوعصابات يائسة ، وقد يمتلكون بفضل الثورة " التكنولوجية " -التى ضاعوا بسببها- إمكانات أسلحة تدمير شاملة يمكن أن تكون معولا لهدم المعبد على كل من فيه .

الفصل الثالث

القومية فى عصر الكيانات الكبيرة

ونأتى إلى نقطة القومية فالقومية .. تقوم أساسا على عناصر أساسية تدخل فيها اللغة والدين والعرقية والتاريخ المشترك والكفاح الواحد والمصالح المتداخلة والأمل المشترك فى المستقبل .

فإذا كانت هناك كيانات فى مناطق مختلفة من العالم قد استطاعت - فى مرحلة العولمة - أن تقيم تكتلات كبيرة لها تأثيرها فى الاقتصاد الدولى والسياسة العالمية ؛ فدول الوحدة الأوربية التى جمعت دولاً من مختلف الجنسيات والأصول العرقية والأديان واللغات والخلفية التاريخية ، وأصبح لها الآن وضع مرموق فى المجال الدولى ، خاصة إذا ما دخلت فيها دول الاتحاد السوفيتى السابق بإمكاناتها الاقتصادية وثرواتها الطبيعية ، وعلمائها فى العلوم الأساسية ، وأراضيها الشاسعة أو تجمع " النافتا " فى أمريكا ، أومحاولة إنشاء التعاون الاقتصادى فى شرق آسيا ، وبالرغم من أن هذه التجمعات لم تصل إلى تحقيق ما يمكن أن نطلق عليه " قومية " بالمعنى الذى تعودنا على فهمه فى المراحل الماضية ، إلا إنها مؤشر لنا على أن الدول العربية بما يجمعها من عناصر الوحدة

الطبيعية . . من أصل عرقي واحد ، ولغة واحدة ، ودين غالب، وتاريخ وكفاح مشترك، ومصالح متكاملة، فلا شك أنها قادرة أكثر من غيرها على أن تخطو خطوات تحقق نوعاً من التعاون والتكامل والتخطيط يمهد لإمكانات أكبر وأوثق فى المستقبل .

ولقد ظلت الوحدة العربية أملا بعيدا ، أو على الأقل لا يبدو له تطبيق قريب وذلك بفعل صراعات وأحقاد ومرارة تراكمت على مر العقود والسنين وصلت فى بعض الأحيان إلى حد حمل السلاح ، والحروب بين الإخوة والأشقاء .

إن تحقيق الأمل نتيجة هذه التراكمات سيحتاج إلى وقت طويل ، وجهد كبير ولكنى أؤمن أن الدول العربية تملك بحمد الله مقدرات وثروات وإمكانات ترشحها لتكون كياناً قوياً كبيراً له تأثيره فى المجال الدولى ؛ فقد حباها الله بمفكرين وعلماء وأدباء ، ومنحها ثروات طبيعية كبيرة ، وأودعها مدخرات وموارد هائلة وتربط بين جوانبها كل مقومات الوحدة الطبيعية .

" وما لا يدرك كله لا يترك كله " ، ولذلك فإنه فى تقديرى يتعين أن تكثف الجهود بمزيد من التعاون والتنسيق والعمل المشترك فى المجالات الآتية :

المجال الأول : الرعاية المتكاملة للطفولة ؛ فالطفولة هى الثروة البشرية الواعدة والعناية المتكاملة بها استثمار مضمون ، لعائد جدواه الاقتصادية مؤكدة ، وتأثيرها على المدى الطويل بالغ القوة والخطورة .

المجال الثانى : التعاون فى مجال التعليم : إن الأمة العربية تملك من خبراتها ومن مراكزها العلمية وإمكاناتها المادية ومن تاريخها الذى يشهد بالسبق فى العلم والمعرفة والثقافة والتعليم ما يمكنها من أن تقيم تعاوناً وثيقاً فى مجال التعليم للأجيال القادمة ، وإن كانت الخلافات الحالية تعرقل التعاون فى مجالات أخرى لتعارض المصالح التى تتعلق بالجيل الحالى فإنه لا يجوز لنا ، ولا مبرر عندنا لأن نختلف فى مصالح الأجيال القادمة ، وذلك فيما يتعلق بالطفولة والتعليم .

ألم يحن الوقت لأن نحول عملتنا الحالية وثرواتنا المتآكلة فى باطن الأرض إلى العملة الجديدة الواعدة " العلم والمعرفة " ؟؟!!

أليس مؤشراً لنا ما تعرضت له أمم ودول من أزمات اقتصادية ومضاريات مالية أطاحت بالمدخرات، وأتت على الاحتياطيات ؟؟!!

ألا يشير لنا التقدم العلمي الذى بدأ يقلل من أهمية الموارد الطبيعية أو الطاقة التقليدية (الطاقة المخزونة فى باطن الأرض) إلى أن نخصص جزءاً من ثرواتنا المتآكلة وعملتنا المتدهورة بتحويلها إلى العملة الجديدة الواعدة وإلى استثمار مضمون العائد ؟؟

وأذكر هنا قول الشاعر العربى :

طمع ألقى على الغرب اللثاما ∴ فاستفق يا شرق واحذر أن تناما

المجال الثالث : السوق العربية المشتركة : إن حجم التجارة فى الأمة العربية لا يستهان به ؛ فالصناعات التى أقيمت فى دول العالم المختلفة لتسوَّق فى أسواقنا المحلية ضخمة ومتشعبة. إن تحقيق سوق عربية مشتركة فاعلة ونشطة، يشكل بنية أساسية قوية لتعاون أكبر فى مجالات أرحب، وإذا ما وضعنا فى الحسبان البعد الزمنى الذى يشكله الاهتمام

بالطفولة والتعليم ، فإن الأمل يزداد فى أن تتمكن أمتنا العربية من تحقيق مستقبل ، ندعو الله أن يكون قريباً فى شكلٍ أقوى من أشكال الوحدة ، وأن تقيم كياناً له وزنه فى المجال العالمى .